الحدث التاريخي بين الرواية والنظرة النقدية
نموذج الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠

د. رياض غنام

مقدمة

لم يكن نظام الملل العثماني المعتمد في مختلف أنظمة وأعراف السلطنة العثمانية، إلا عاملاً مفجراً للفتن والأحداث الدموية في أكثر من مكان ومجتمع أهلي كان يخضع لمبادئ وحيثيات هذا النظام. ولم يكن النظام السياسي لمجتمع الجبل اللبناني يتأثر بشكل أساسي بمفاعيل هذا النظام السائد في الحاضرات العثمانية، كونه يقوم على عصبية سياسية قوامها القيسية واليمنية استمرت فاعلة حتى أوائل القرن الثامن عشر، ثم اليزبكية والجنبلاطية حتى أواخر القرن التاسع عشر، وقسّمت كلتاهما المجتمع الجبلي بجميع أبنائه وفئاته الدينية والطبقية إلى عصبيات تتخاصم وتتصارع على أساس مصالحها السياسية ومنافعها الاقتصادية والاجتماعية، وليس على أساس انتماءاتها الدينية أو المذهبية.

في الفترة التي بدأت فيها معالم الدولة القومية بالظهور، لم يتسنّ لكثير من المجتمعات المشرقية ان تنجز نقلتها النوعية بالانتقال من واقع العصبيات المقاطعجية إلى رحاب الدولة الحديثة، إذ ان تفجر الفتن والحروب الدموية الطائفية بداوفع محلية ودولية متعددة، حال دون ذلك وأدّى إلى قيام نظم طائفية أكثر ما تبدو ماثلة وصارخة في المجتمعات التي تتوازن فيها العصبيات الدينية والمذهبية ويأتي جبل لبنان أحد أبرز هذه الأمثلة الحادة.

كان لسياسة الأمير بشير الشهابي الثاني من خلال الإجراءات التي اتخذها مع حكومة محمد علي باشا وابنه ابراهيم، أبلغ الأثر في إيجاد الأرضية الخصبة لنمو حالة الانقسام الطائفي والمذهبي، وبهدف تدعيم السلطة المركزية المصرية في بلاد الشام، وخصوصاً في جبل لبنان، وعمد المصريون والأمير بشير إلى تحريض الطوائف بعضها على البعض الأخر، وتوزيع «السلاح المؤبد» عليها، ولم يكن بشير الثالث الضعيف أساساً والمستضعف بأميز من سلفه، وأوعى لخطر استعمال سلاح «الحض بالطوائف»، وكذلك خلفه عمر باشا الملقب بالنمساوي، لذلك ما ان انتهى عهداهما،

حتى كان الجبل اللبناني وخصوصاً المناطق المختلطة منه، مسرحاً لحروب أهلية وفتن دموية، فقام الزعماء والأعيان المقاطعجيون ورؤساء الطوائف والمذاهب ورجال الدين يأخذون بعضهم برقاب بعض، يهاجمون القرى، يقتلون السكان، يحرقون البيوت ويهدمونها، في دورة دموية كان أبرز محطاتها سنوات ١٨٤٢ و ١٨٤٥ و ١٨٥٨ و ١٨٦٠، وكانت هذه الأخيرة أشدها دموية وأفدحها خراباً وتدميراً وأكثرها خسارة في النفوس والممتلكات، حتى ان مصطلح «سنة الستين» كان كافياً للدلالة عما حصل فيها من دمار وخراب وزهق أرواح.

شهدت القائمقاميتان النصرانية والدرزية قبل الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ أحداثاً وتطورات اتسمت بميزة التوتر في العلاقات السياسية والاجتماعية بين السكان داخل كل قائمقامية، فقد شهدت القائمقامية النصرانية، توتراً ملحوظاً على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي، كما شهدت انحلالاً في المؤسسات المقاطعجية التقليدية بعد وفاة القائمقام حيدر اسماعيل أبي اللمع، وتقدم المؤسسة الدينية المجسّدة بالكنيسة المارونية، للأخذ بزمام المبادرة في القيادة السياسية(١). في حين استعاد المقاطعجيون الدروز بعد حرب ١٨٤٥، انقساماتهم التقليدية بين جنبلاطيين ويزبكيين، فمال الجنبلاطيون بزعامة الشيخ سعيد إلى الحماية البريطانية، بينما اتجه اليزبكيون نحو حماية القنصل الفرنسي(٢). وقد مهدت الحالة السياسية في القائمقاميتين للحرب الأهلية سنة ١٨٦٠، بحدثين مهمين أولهما الثورة الفلاحية في كسروان سنة ١٨٥٨، وحادثة بيت مري في صيف سنة ١٨٥٩ حيث اعتبرت الشرارة الأولى للحرب التي وقعت في السنة التالية، وهي الحرب التي سنشير إلى وقائعها المادية من خلال خطوطها العريضة ووقائعها في مختلف الجهات والتي كان مسرحها المقاطعات المختلطة من جبل لبنان، كما سنعرض النظرة النقدية التي واكبت كتابات المؤرّخين من خلال ابتعادهم عن حقيقة الصراع ببعديه المحلي والدولي.

لمحة عن وقائع الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠

إذا كانت حادثة بيت مري التي وقعت سنة ١٨٥٩ قد اعتبرت بداية الحرب الأهلية، إلا انها ما لبثت ان توقفت بضغط من والي صيدا خورشيد باشا(٣)، ومداخلات القناصل الأوروبيين، فكان ان تأجلت إلى وقت أخر انصرف فيه مختلف الفرقاء إلى الاستعداد والتعبئة، فأمضوا شتاء ذلك العام بالحملات الدعائية والتزود بالأسلحة والذخائر، وخصوصاً من قبل جمعية بيروت التي كانت تشتري السلاح وتوزعه على مسيحيي الجبل(٤). وما ان

---

(١) اسطفان البشعلاني: لبنان ويوسف بك كرم، مطبعة صادر، بيروت، ١٩٢٥، ص ١٩١ ـ ١٩٢. أيضاً: بطرس فهد، بطاركة الموارنة وأساقفتهم في القرن التاسع عشر، دار لحد خاطر، بيروت ١٩٨٦، ج ١، ص ٣٢٤ ـ ٤٢٦.

(٢) ISMAIL ADEL. Histoire du Liban du XVIIème Siècle à nos jours, T.N. Redressement et Déclin du Féodalisme Libanais (1840-1861) Beyrouth, 1958 T. IV p,311.

(٣) ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان في عهد آل عثمان، منشأه ملحم خليل عبدو واندراوس شخاشيري، طبع بمصر سنة ١٩٠٨ ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٤) شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، الطبعة الأولى، مصر، سنة ١٨٩٥، ص ١٣٩، أيضا تشارلز تشرشل، بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من ١٨٤٠ الى ١٨٦٠، ترجمه عن الانكليزية فندي الشعار، دار المروج، ١٩٨٤، ص ٨١.

انتصف ربيع سنة ١٨٦٠، حتى أخذت الاصطدامات تتكرر بين الدروز والموارنة في مناطق السكن المختلط، فذكر القنصل مور في تقرير له إلى السفير الانكليزي في القسطنطينية، أن حوادث الاصطدام والقتل في الأسبوعين الأخيرين، تجري يومياً بين السكان المحليين، كما ان القنصل الروسي روستوفسكي كتب إلى سفيره في القسطنطينية قائلاً «ان الحرب الأهلية واقعة لا محالة في جبل لبنان، بعد ان تمت عملية التزود بالسلاح»(٥).

دشن مقاتلو زحلة القتال في الثاني من شهر أيار بالهجوم الشامل على قرى المتن، فجرت موقعتا ضهر البيدر وكفرسلوان، وتلتهما مواقع السهل والفرزل وكسارة في أوائل شهر حزيران، قبل ان ينكفئ الزحليون إلى داخل المدينة(٦). وقد أسفرت تلك المواقع عن مئات القتلى والجرحى من الفريقين، وانتهت بحصار زحلة ثم سقوطها لاحقاً رغم محاولة نجدتها من قبل يوسف بك كرم، وتوقفه عن ذلك بعد مداخلات قنصل فرنسا، ووالي بيروت خورشيد باشا(٧).

وقبيل انتهاء شهر أيار، قام طانيوس شاهين على رأس ٥٠٠ مقاتل من كسروان، بالهجوم على بلدتي بيت مري وبعبدا، وبعد مناوشات خفيفة انتقل إلى المتن، ولكن سرعان ما هاجم الجنود الأتراك قوات شاهين، وبعثروها، فعادت إلى كسروان مشتتة وبغير انتظام. وفي دير القمر الواقعة في قلب المناطق المختلطة، شنت فصائل الموارنة هجومها على القرى المجاورة، لكنها ما لبثت ان تراجعت أمام هجمات الدروز المضادة، ثم أخذت ساحة المعارك بالاتساع فاحتل الدروز قرية حمانا، واجتاحوا بعض المؤسسات الأوروبية القائمة فيها وخربوها بأمر من قائدهم خطار بك العماد(٨).

وعلى جبهة حاصبيا، جرت معارك حربية عديدة، حارب النصارى خلالها تحت قيادة الأمراء الشهابيين حكّام حاصبيا وراشيا، في حين انضوى المقاتلون الدروز تحت قيادة مشايخهم علي حمادة وكنج العماد، وحسن آغا الطويل (حمادة)، وانتهت هذه المواقع بتراجع المسيحيين إلى السرايا مركز إقامة الحامية العثمانية. وكان قتلى الفريقين متساوياً تقريباً(٩) وأعقب ذلك وقوع مجزرة على يد الحامية العثمانية، الأمر الذي أكدته الوثائق البريطانية، في حين انصرف الدروز إلى تعقب الأمراء الشهابيين والانتقام منهم، وكان أبرز ضحاياهم حاكم حاصبيا سعد الدين شهاب(١٠).

وكما حصل في حاصبيا حصل أيضاً في راشيا، إذ ما لبث ان تراجع المقاتلون المسيحيون إلى قلعة راشيا، حيث كانت مركزاً لحامية عثمانية، وفيها تمت المذبحة على يد الحامية نفسها. في حين تعقب الدروز الأمراء الشهابيين، وقتلوا منهم ومن أعيانهم اثني عشر كان من بينهم الأمير فندي شهاب حاكم راشيا(١١).

(٥) مارينا بانتنشكوفا، جذور الأزمة اللبنانية والعدوان الاستعماري على سورية ١٨٦٠ ـ ١٨٦١، ترجمة وتقديم أحمد فاضل، دار المنارة للدراسات والترجمة والنشر، سوريا ١٩٩١، ص ١٤٢.
(٦) عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ زحلة، منشورات زحلة الفتاة، الطبعة الثانية ١٩٧٧، ص ١٩٨ ـ ٢٠٤.
(٧) Poujoulat, Baptistin: La vrit sur la Syrie, Editions Dar Lahad Khater, Beyrouth, Liban 1985 T1 P. 91-92.
(٨) مارينا بانتنشكوفا، جذور الأزمة اللبنانية، ص ١٤٣.
(٩) ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، ص ١٦١.
(١٠) اسكندر ابكاريوس: مخطوطة نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان، الجامعة الأميركية، مكتبة يافث، ص ١٦٩، أيضا الوثائق البريطانية Fo 226/140.
(١١) شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص ٦٣. أيضاً: Poujoulat, La vrit sur la Syrie. T1. P.200.

وفي منطقة شرقي صيدا، شهدت بساتين المدينة وبعض قراها معارك حامية بين الفريقين المقاتلين، إذ تولى قيادة المسيحيين يوسف المبيض من بلدة درب السيم، في حين تولى قيادة الدروز، قاسم يوسف حمادة أحد ابرز أنصار الشيخ سعيد جنبلاط، والمحافظ على أملاكه في سبلين وغيرها من قرى الإقليم، وقد انضم إليه الكثيرون من أهالي اقليم الخروب وبعض سنّة صيدا، الأمر الذي قلب موازين المعركة، بعد ان كاد يوسف المبيض ان ينتصر فيها. وخطب مفتي صيدا في جموع المصلين محرضاً إياهم على الجهاد وقتال النصارى[١٢]. حتى انه خرج بنفسه من المدينة ليثير حماستهم وعصبيتهم الدينية[١٣].

وفي منطقة ساحل اقليم الخروب نزح العديد من السكان المسيحيين من قرى الدبية وشرق الدامور والناعمة إلى الدامور، وانتقل بعضهم بحراً بواسطة القوارب إلى بيروت، بعد أن جرت معارك بين بعض مسلحيهم ومسلحين من قرى بشامون والشويفات ودير قوبل وغيرها[١٤].

وفي منطقة جزين ورغم محاولات الشيخ سعيد جنبلاط تهدئة الخواطر ومنع الفتنة من الامتداد، إلا ان شيوخ الشباب الذين تولوا القيادة في كل قرية مسيحية، مثّلوا دوراً كبيراً في تنشيط السكان وتشديد عزيمتهم القتالية، وقد انتهت المعارك على تلك الجبهة بفرار المقاتلين إلى منطقة جبل عامل، وتدمير أغلب قرى اقليم جزين وحرقها[١٥].

لقد كشفت المعارك الأولى عن ضعف الاستعداد العسكري لدى الموارنة، فالفصائل المسيحية كانت مشتتة وسيئة التنظيم ومعدومة القيادة، في حين كان الدروز أفضل تنظيماً وحماسة من خصومهم، وهذا الواقع دفع القنصل الروسي إلى الكتابة إلى سفيره في العاصمة القسطنطينية في أخر شهر أيار للتنبؤ ان «الدروز هم الغالبون» في هذا الصراع الدامي[١٦].

وفي مناطق المتن والساحل، اتخذت الحرب منحى الإغارة على القرى، ففي حين قام النصارى بالهجوم على قرى صليما وقرنايل وبتخنيه وعين دارة، قام الدروز بالإغارة على بيت مري وعدة قرى أخرى، وشوهدت أوار الحرب من بيروت. وتدخلت القوات العثمانية مشاركة الفريقين في السلب والنهب، وأحرقت دور الشهابيين في عدة قرى، كما اغتيل ذبحاً الأمير بشير قاسم ملحم آخر أمير شهابي حاكم على الجبل.

وقام المطران طوبيا عون يحث أهالي دير القمر على مهاجمة القرى الدرزية في الشوف، باعثاً الرسائل إلى طانيوس شاهين يستعجله للقدوم نحو الجنوب، ويوسف الشنتيري للمجيء إلى المتن والقاطع، لجمع المقاتلين[١٧]. ووصلت نجدة من كسروان قوامها اربعماية مقاتل بقيادة

---

(١٢) شاهين مكاريوس، حسر الثام، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(١٣) Ducrot,A. Le Liban et L'Expdition Franaise en Syrie 1860-1861 Documents indits du Gnral Ducrot par p. Camille de Rochemontreix, Paris 1921. P. 52.

(١٤) اسكندر ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(١٥) مكاريوس، حسر اللثام، مصدر سابق، ص ٢٠٢، أيضاً: يوسف خطار أبو شقرا، الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية، تحقيق عارف أبو شقرا، لا دار، ص ١٠٣ و ١٠٥.

(١٦) بانتنشكوفا، جذور الأزمة اللبنانية، ص ١٤٤.

(١٧) فيليب وفريد الخازن، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠، دار الرائد، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣. ج ٢ ص ١٣ و ٢١.

شجعان العضيمي، لكن الدروز أوقعوا بها على مرأى من قوات خورشيد باشا(١٨).

وكانت أشد المعارك تلك التي وقعت في العبادية في المتن. وقد برز من الدروز المشاركين فيها محمود تلحوق ونصر الدين عبد الملك وخطار العماد وابنه علي، في حين برز من النصارى بعض المشايخ الخازنيين وشجعان العضيمي. وانتقل طانيوس شاهين إلى بلدة انطلياس حيث تلقى معونات عسكرية، ولكن قواته لم تصمد، وانتهت معارك الساحل وتلك الحرب، بنكبة بعبدا ووادي شحرور والحدث واللويزة وبيت مري وبرمانا وصليما والمتين، وفرار قسم كبير من السكان إلى بيروت طلباً للجوء والحماية(١٩).

ما ان تواسط شهر حزيران حتى كان الإقطاع الدرزي قد حسم الوضع على مختلف الجبهات، وسيطر على القرى والمدن الجبلية في المناطق المختلطة، ولم يبق أمامه إلا مدينتي زحلة في البقاع ودير القمر في بلاد الشوف. وكانت زحلة بعد تراجع مقاتليها عن معارك المتن(٢٠)، واندحارهم في المواقع التي جرت بجوار المدينة، قد بدأت تتعرض للحصار من قبل التحالف الدرزيالشيعي. وإذا كان الدروز قد نقموا على سكانها الذين بادروا بالهجوم على القرى الدرزية في المتن، فان شيعة البقاع وبعلبك، وجدوا في الحرب الدائرة فرصة لكسر شوكة الزحليين وتطاولهم على جيرانهم. وكانت حادثة حرقهم بلدة بريتال الشيعية سنة ١٨٥٥ السبب المباشر لتدهور العلاقات بين الفريقين(٢١)، وانفصام عرى العلاقات الطيبة بينهما، بعد أن حاربوا مشتركين وفي خندق واحد ضد الدروز في الحركات السابقة.

استعدت القيادات الدرزية لتسديد ضربة قاصمة لزحلة وهي أمنع المواقع المسيحية. فحشدت بمواجهتها قوات مشتركة من الدروز والشيعة والعرب البدو والأكراد بقيادة خطار العماد، الذي اتخذ من بلدة قب الياس مركزاً لقيادته(٢٢) وكان الشيخ اسماعيل الأطرش أحد أبرز زعماء جبل الدروز قد قدم على رأس ستماية مقاتل بعد انتهاء معارك حاصبيا وراشيا(٢٣). كما انضم إلى هذه القوى بعض النصارى من الروم الكاثوليك من جنوب البقاع وبعض نصارى وادي التيم الذين شاركوا في معارك حاصبيا وراشيا، فكان ان بلغت جموع المهاجمين نحو ٣٢٠٠ مقاتل(٢٤).

لم يكن الهجوم على زحلة مفاجئاً للقوى السياسية والعلمانية، إذ كانت القوى المشاركة بالحرب قد مهدت لها بعدة مواقع كان أبرزها مواقع ضهر البيدر وكفرسلوان والسهل والفرزل وبساتين الكرك وكسارة. وكان والي صيدا خورشيد باشا قد تلقى كتاباً في العاشر من حزيران من البطريرك الماروني يذكر فيه استعداد الدروز لحصار البلدة، وكذلك وجه

(١٨) مكاريوس، حسر اللثام، ص ١٩٢ ـ ١٩٧.
(١٩) ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ١٢٧ و ١٣٨، وأبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١٠٩.
(٢٠) الوثيقة رقم ٧١ من كتابنا المقاطعات اللبنانية في عهد الأمير بشير الثاني ونظام والقائمقاميتين، دار بيسان، بيروت ١٩٩٩ ص ٤٧٥.
(٢١) عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ زحلة، ص ١٩٠ ـ ١٩٢ و ١٩٦. أيضاً حسن عباس نصرالله، تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٩٨٤ ج١ ص ٣٣٦ ـ ٣٤٠.
(٢٢) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١٢٠، ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ٢٠٣.
(٢٣) . Poujoulaī La vrit Sur La Syrie, T1, P205.
(٢٤) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١٢٢.

القناصل الأوروبيون، مذكرة مشتركة تتعلق بالدفاع عن البلدة. والقنصل الانكليزي مور، وجّه تقريراً للسفير البريطاني في العاصمة يذكر فيه ان سقوط زحلة سيعرض دمشق للمصير عينه، وان الجبل بكامله سيعمه الاجتياح والخراب. ورغم هذا لم يقم لا السفير ولا القنصل البريطاني بأيّ إجراءات جدية لإنقاذ زحلة، كما ان الحامية العثمانية وعددها سبعة آلاف جندي. لم تحرك ساكناً لحماية المدينة، وبقيت عديمة الفاعلية كلياً(٢٥).

كانت إمكانية مساعدة زحلة سهلة على القوى المسيحية المشاركة في القتال أو المتحفزة للمشاركة فيه، وخصوصاً طانيوس شاهين ويوسف بك كرم. لكنهما تخلفا عن ذلك لأسباب سياسية وعسكرية(٢٦). غير ان كرم وبعد أن دمّر القرى الشيعية الواقعة في نواحي صنين وطرد أهلها منها، «حتى لا يبقى هناك أعداء في قلب البلاد بالذات»(٢٧) أقام في بكفيا القريبة من زحلة متربصاً وممتنعاً عن المشاركة في القتال محافظة منه على العلاقة الحميمة التي تربطه بوالي صيدا خورشيد باشا، إذ خشي ان تؤدي مساعدة أهالي زحلة، إلى إغضاب الوالي العثماني، فيبعده عن تحقيق رغبته بتولي القائمقامية النصرانية(٢٨).

رتب الزحليون الدفاع عن مدينتهم بإقامة المتاريس حول مداخلها وحاراتها، وبلغ عددها تسعة متاريس يخفرها المقاتلون والفرسان، وقد بلغ عددهم حسب رواية عيسى اسكندر المعلوف نحو ألف وخمسماية مقاتل بين فرسان ومشاة(٢٩).

استغل الدروز ضعف الجبهة الغربية من زحلة، وهي الجهة التي كان ينتظر الزحليون دخول مساعدة يوسف بك كرم منها، فدخلوا المدينة بقيادة خطار بك العماد، الذي قُتل ابنه علي في موقعة ضهر البيدر قبل شهر من معركة زحلة. وبعد سقوط متراس بيت البريدي راحت سائر المتاريس تتساقط الواحد تلو الأخر، إلى ان أحكم المهاجمون قبضتهم على المدينة جاعلين منها عرضة للسلب والنهب والقتل والنيران. وما أزف غروب ذلك اليوم حتى أعلن زعيما الدروز الأطرش والعماد إخلاء المدينة من المقاتلين، فأخلوها قاعاً صفصفاً بعد ان تكبدوا في احتلالها نحو مائة وثمانين مقاتلاً مقابل مائة وعشرين من الزحليين(٣٠).

اعتبرت معركة زحلة من المعارك الفاصلة في الحرب الأهلية، وقد تكون المعركة الوحيدة الكبرى في الحرب الأهلية التي يصح ان نطلق عليها لقب معركة وليس مجزرة. وقد فاقت خسائر الدروز فيها خسائر النصارى كما ذكرنا من قبل، حتى ان المؤرخ الدرزي أبو شقرا اعتبر سقوطها بيد الدروز في أواسط حزيران سنة ١٨٦٠، فخراً عظيماً لما أبدوه من شجاعة وإقدام، فكتب مؤرّخاً الواقعة: «يعجز القلم ويكلّ عن تبيانه اللسان لأنه من كان يرى المقاتلين

---

(٢٥) بانتنشكوفا، جذور الأزمة اللبنانية، ص ١٤٧.

(٢٦) فيليب حتي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر، ترجمه عن الانكليزية أنيس فريحة، مراجعة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٨، ص ٥٣١.

(٢٧) الاب انطوان ضو، حوادث سنة ١٨٦٠ في دمشق ولبنان، لجنة بيروت الدولية، المحاضر الكاملة ١٨٦٠ ـ ١٨٦٢، تحقيق وترجمة الاب انطوان ضو، منشورات وتوزيع مختارات بيروت، لبنان ١٩٩٦ ـ ص ٥٠٤ و٥٤٤.

(٢٨) ISMAIL, ADEL, Histoire du Liban, T. IV P.338-339.

(٢٩) عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ زحلة، ص ٢٠٥.

(٣٠) عيسى اسكندر المعلوف، المرجع عينه، ص ٢٠٦ و ٢٠٩.

متساقطين على زحلة من حيث كانوا واقفين ويرى ما كان ينصبّ عليهم من قذائف الرصاص التي يشبه انصبابها البرد في أعالي الجبال يندهش لذلك المرأى العجيب، ولا سبق إلى ظنه ان تلك الجماعة منقضة على زحلة لتفتحها عنوة، بل يقول ان هؤلاء الرجال قربت مناياهم فهم إلى مصارعم مسرعون وهم غير مبالين»(٣١).

وقد كان لسقوط زحلة أثر سيء لدى قناصل الدول الأجنبية فطالبوا المسؤولين العثمانيين، بوضع حد للأحداث والفتن، في حين تلقت الأوساط الرسمية والشعبية في بلاد الشام الخبر بالسرور والارتياح، حتى ان احمد باشا والي دمشق، أمر بإقامة الأفراح وتنوير الشوارع احتفالاً بتلك المناسبة، الأمر الذي برره بعض مؤرخي تلك الفترة «ذاكرين ما كان يقدم عليه أهالي زحلة تجاه المسلمين القادمين من دمشق، والمارين بزحلة، من إيذاء في عقيدة أي مسلم صاحب حاجة في أثناء مروره بزحلة، وهو أمر رهيب، فقد كانوا يشتمون دينه ونبيه وصحابة رسول الله ويسمون كلابهم بأسماء الأنبياء وعلماء المسلمين، بالإضافة إلى انعدام الأمن في منطقة زحلة»(٣٢).

لم تقتصر أسباب الحرب الأهلية في الجبل على الدوافع المحلية وصراع الدروز والموارنة على السلطة، بل كان لها أبعادها ودوافعها الدولية وتشابك المصالح والأطماع السياسية والاقتصادية للعديد من الدول الأوروبية، لذلك لم يكن من المتوقع ان تتوقف رحى الحرب عند سقوط زحلة، إذ كانت تحضّر لأحداث دير القمر للسير بها على غرار سالفتها، بانتظار انتقال الفتنة إلى خارج الجبل، الأمر الذي يهيئ التربة الخصبة لأي تدخل دولي يتناسب مع ضخامة الفظائع الدموية المرتكبة في بلاد الشام. فبعد سقوط زحلة لم يبق من التجمعات النصرانية الكبيرة سوى دير القمر(٣٣)، وهي بلدة كبيرة يقطنها النصارى والدروز واليهود الذين يشكّلون ثُمْن عدد السكان، في حين توزع الباقي بنسبة ثلثين للمسيحيين وثلث للدروز. وقد مال سكان الدير بشكل عام نحو الهدوء والسكينة منذ أحداث بيت مري سنة ١٨٥٩، وذلك محافظة منهم على ازدهار مدينتهم وتقدم تجارتها(٣٤). وكان قد روعي وضعها الجغرافي والسكاني، فخضعت لسلطة متسلم عثماني حسب تنظيمات شكيب افندي سنة ١٨٤٥، بعد أن رغب سكانها النصارى في التخلص من سلطة الأعيان الدروز، وان لا تكون البلدة مقراً لأي منهم(٣٥).

وقد سعت للاستقلال والسيادة عن القائمقامية الدرزية بتوجيه من البطريرك الماروني، والقنصل الفرنسي بوره. ورغم خضوعها لسلطة متسلم عثماني يرتبط مباشرة بوالي صيدا، إلا ان وضعها القانوني والإداري والسياسي، ظل موضع خلاف وتجاذب بين الدروز والنصارى، حتى عشية الحرب الأهلية. وعندما حاول أحد أبناء البلدة المقاطعجيين بشير نكد بناء منزل له في ضاحية البلدة، منعه الديريون من ذلك، فكانت عبارته الشهيرة «سأبني بيتي من جماجم نصارى أهل

(٣١) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١٢٧.
(٣٢) انظر مقدمة كتاب نوادر الزمان لاسكندر ابكاريوس، ص ٦٤.
(٣٣) الوثائق البريطانية، Fo226/134, 135178 Great Britaiñ Public Record office, Foreign office.
(٣٤) شاهين مكاريوس، حسر اللثام عن نكبات الشام، ص ١٧٠ ـ ١٧١.
(٣٥) فريد وفيليب الخازن، المحررات السياسية والمفاوضات الدولية، ج ١ ص ١٢٢.

الدير»[٣٦] تعبيراً منه عما كان به من غصص وشعور بالمرارة.

لم تكن الأحداث السياسية والوقائع العسكرية التي وقعت في طول البلاد وعرضها لتساعد على تحييد دير القمر، فضلاً عن مداخلات القناصل في شؤون الطوائف، ورفض البطريرك لأي مصالحة تجري على غرار صلح سنة ١٨٤٥[٣٧]. وبالمقابل كان الشيخ سعيد جنبلاط يميل إلى مهادنة دير القمر وتحقيق الصلح معها متعهداً بتراجع مؤيديه، والجلاء عنها[٣٨]، الأمر الذي أثار الشيخ بشير النكدي فاتهم الشيخ سعيد بسعيه إلى فصل دير القمر عن اقليم المناصف التابع للاقطاع النكدي لتصبح تحت حكم الجنبلاطيين، فصمم على اخذ دير القمر بالقوة. وإخضاعها لسلطته. بحد السيف[٣٩].

اتسمت المعارك الأولى بين فريقي النزاع بتكافؤ القوى، وسجّل الديريون صموداً واستبسالاً بسبب منعة استحكاماتهم، الأمر الذي أوقع خسائر فادحة بالمهاجمين. ففي إحدى المعارك خسر الدروز ٤٧ قتيلاً قبل ان يقتل احد من مسيحيي الدير[٤٠]. وبحكم كون البلدة مشتركة بين الفريقين، وتداخل بيوت المسيحيين والدروز بعضها بالبعض الآخر، كانت العمليات القتالية تحصل بين المنازل والأزقة، وما ان شارف يوم ١٩ حزيران على المغيب حتى كان الدروز قد شددوا حصارهم على غالبية بيوت البلدة بعد ان انضمت إلى قواتهم جماعات من قرى إقليم الخروب[٤١]، فقطعوا الطرقات المؤدية إلى حارة المسيحيين، وهاجموها واحتلوها بعد معارك لا تخلو من حدة. وكان مقاتلو النصارى قد هزموا نفسياً قبل ان يهزموا في ساحات القتال بسب الأجواء العامة التي سيطرت على المسيحيين عامة في أعقاب سقوط زحلة، فضلاً عن قسوة الحصار، وفقدان الإمدادات وعجز القيادة السياسية والعسكرية عن تلبية احتياجات الصمود والدفاع، بعد ان شاعت أنباء ان ما يجري في الجبل هو تنفيذ لأمر السلطان العثماني بالقضاء على جميع نصارى الشرق[٤٢].

أثناء العمليات القتالية، كان تدفق المدنيين من شيوخ ونساء وأطفال مستمراً إلى مبنى السرايا في دير القمر، حيث اتخذ منها الجيش العثماني مقراً له، وقد فتح قائد المدينة الأبواب للدخول إليها، وبدل ان يحمي العسكر العثماني جموع اللاجئين، ويحول دون التعرض لهم، عمد إلى ارتكاب مجزرة بحقهم على مرأى من الضباط العثمانيين، والاستيلاء على ما كان يحمله هؤلاء من حليّ ومصاغ ومقتنيات. وكما حصل في دير القمر، كذلك حصل في بيت الدين، فقد ارتكب العسكر العثماني مجزرة بحق السكان المدنيين بعد التجائهم إلى سرايا الحكومة، وكان اللاجئون قد أتوا إليها من القرى المجاورة لبيت الدين[٤٣].

---

(٣٦) شاهين مكاريوس، حسر اللثام، ص ٢٢١.

(٣٧) أنظر الوثيقتين رقم ٧٢ و ٧٣ من كتابنا المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي ونظام القائمقاميتين.

(٣٨) الوثائق البريطانية، Great Britain, Public Record office Foreign office Fo226/134,135178.

(٣٩) أبو شقرا، الحركات في لبنان، ص ١١٨.

(٤٠) لويس بوديكور، دور فرنسا في لبنان، تعريب وتحليل كرم جوزف انطون، لا دار، ١٩٨٢، ص ١٠٨، أيضاً ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ٢١٢.

(٤١) الوثائق البريطانية، المصدر السابق عينه.

(٤٢) ميخائيل مشاقة، مشهد العيان، ص ١٥٨. أيضا: Documents Diplomatiques T.10, P, 275.

(٤٣) الوثائق البريطانية، أيضاً شاهين مكاريوس، حسر اللثام، ص ١٨٠ ـ ١٨١و١٨٤. تشرشل، بين الدروز والموارنة، ص ١٠١ و ١٠٣.

كانت النتائج الكارثية للحرب الأهلية في الجبل أكبر من أن يتحملها العمال العثمانيون وأطراف الصراع المحليون وخصوصاً المقاطعجيون والزعماء الدروز. وشعر خورشيد باشا بفداحة الخطب، فاندفع وراء فريقي النزاع للحصول منهما على وثيقة الصلح، فحاول إقناع الزعماء المسيحيين بالتوقيع على وثيقة تحت شعار «تناسي الماضي» و«مضى ما مضى» وأبرز بنودها أولا: عدم المطالبة بالتعويضات الناتجة عن خسائر الحرب، وإعادة المهجرين إلى بيوتهم وأملاكهم[٤٤]، وثانياً التأكيد للمسيحيين بأن ما حصل بينهم وبين الدروز كان حرباً أهلية وليس مجازر ومذابح.

هذه السياسة الماهرة الماكرة تمت بتخطيط من خورشيد باشا والي صيدا، والقنصل البريطاني موير، والشيخ سعيد جنبلاط، وكان لها حظ كبير من النجاح لولا وقوع مجزرة دمشق في التاسع والعاشر من تموز، فانقلبت الأوضاع رأساً على عقب، واستتبع ذلك تدخل أوروبي، كان من شأنه ان اتخذت قضية جبل لبنان مجرى جديداً له ميزة الصفة الدولية[٤٥].

ان مجزرة دمشق أسقطت جميع مشاريع الاتفاقات بين الدروز والموارنة برعاية العمال العثمانيين والقنصل البريطاني. وأعادت خلط الأوراق مقدمة لتدخل أجنبي أوروبي أوسع، فطويت صفحة صك المصالحة، الذي رعاه خورشيد باشا والقنصل مور وسعيد جنبلاط بانتظار الحل الأوروبي الآتي من عواصم القرار والمستند إلى مصالح دولتي فرنسا وبريطانيا، وذلك في إطار اللجنة الدولية التي كلف برئاستها وزير خارجية السلطنة العثمانية فؤاد باشا.

حوادث ١٨٦٠ من منظار مختلف المصادر التاريخية

ان فهماً حقيقياً لأحداث ١٨٦٠ لا يمكن إلا على ضوء العلاقات بين الدول الكبرى، وخصوصاً دولتي فرنسا وبريطانيا، كما لا يمكن فهمها إلا على ضوء سياسة نابوليون الثالث المشرقية، لأن العقدة الأكثر أهمية في التناقضات الانكليزية، تركزت آنذاك شرقي البحر المتوسط وقد اختصرها بوجولا رداً على ما قاله البطريرك « إما أن يسود الدروز أو الموارنة في جبل لبنان» بقوله: «اما أن تسود فرنسا أو انكلترا في سوريا»[٤٦]. وقد دل الكثير من الأحداث والوقائع على صراع الدولتين الخفي تارة والمعلن تارة أخرى من خلال وقوف العملاء الانكليز والفرنسيين وراء الدروز والموارنة. وقد أكد نوفيكوف ممثل روسيا في اللجنة الدولية ان التنافس بين الطائفتين كأنما هو «قضية تتعلق بتناقضات هاتين الدولتين الكبيرتين»[٤٧]. كما ان قنصل روسيا في بيروت بتكوفيتش اعتبر ان صراع الدروز والموارنة هو ثمرة التنافس الانكليزي ـ الفرنسي. وكما دان الفرنسيون السياسة الانكليزية، فان المؤرخين الانكليز دانوا السياسة المشرقية البونابرتية أيضا، معتبرين ان ما يجري هو نتيجة دسائس الدبلوماسية الفرنسية في سوريا، مؤكدين ان هدف الفرنسيين في جبل لبنان هو إقامة سلطة سياسية مارونية برئاسة أمير شهابي، وإخضاع

(٤٤) راجع عهد الصلح بين الدروز والموارنة، الموقّع في بيروت في السادس من تموز سنة ١٨٦٠ في المحررات السياسية والدولية، ج ٢ ص ١٠٩ ـ ١١١.

(٤٥) ISMAIL, ADEL, Histoire du Liban, T.IV P.343 - 345

(٤٦) Poujoulat, La vrit Sur La Syrie, T,2 P 414.

(٤٧) نانتنشكوفا، جذور الأزمة اللبنانية، ص ١٣٣.

الدروز لهذه السلطة فيتأمن لفرنسا إخضاع هذه المنطقة من بلاد الشام(٤٨).

وتؤكد النصوص الرسمية المتوافرة في سجلات وزارتي الخارجية في كل من لندن وباريس ان أحداث ١٨٦٠ وما رافقها من قتل ودمار، لم تكن مجرد أحداث محلية بين الدروز والموارنة، كما وصفتها المدونات التاريخية، بل كانت جزءاً من المسألة الشرقية، وأبرز موضوعاتها الساخنة مسألة شق قناة السويس، وتهجير مسيحيي الجبل لإسكانهم في مستعمرة الجزائر، للعمل في القطاعات الزراعية، وعليه فإن المسؤولية النهائية عما حصل يجب ان توزع على الدول المعنية بهذه المسألة(٤٩).

وكانت الكنيسة المارونية بعد أن بلورت مشروعها السياسي في جبل لبنان، على ضوء ما قدمه منّظرو الأيدولوجية المارونية، بدءاً بالمؤرّخ جبرائيل القلاعي وانتهاء بطنوس الشدياق، وعلى ضوء علاقتها الوطيدة والتاريخية مع الحكومة والشعب الفرنسي، تعمل لتحقيق هذا المشروع، وكان لرجال الدين وخصوصا البطريرك، والمطارنة الدور القيادي في المحاولات التي ما انفكت منذ سنة ١٨٤٠ تسعى جاهدة لتحقيقها(٥٠)، وقد دلت وقائع الأحداث من خلال كتابات المؤرّخين المسيحيين، على دور البطريرك بولس مسعد والمطرانين طوبيا عون وبطرس البستاني في أحداث سنة ١٨٦٠(٥١) فضلاً عن سائر رجال الدين الذين شكلّوا شبكات إعلامية متجذرة في المدن والقرى والدساكر، وقاموا بتعبئة الرأي العام المسيحي والانخراط في صفوف المقاتلين كسائر القوى العلمانية(٥٢).

وعلى صعيد الفريق الآخر المتمثل بالدروز، ورغم ندرة مصادرهم التاريخية التي واكبت هذه الأحداث، فانهم لم يكونوا أقل همجية من خصومهم، فسمة الحرب هي ذاتها القتل والجرح والنهب والسلب وحرق الممتلكات، وقد مارسها الدروز والموارنة على حد سواء، وهي وان كانت مدانة في أي مكان وزمان، إلا انها كانت شائعة، لجأ إليها الفريقان دون حرج أو سؤال، وقد تطرّف الدروز في ممارستها وقسوا في حروبهم لشعورهم ان الحرب تستهدف وجودهم وكيانهم، وهذا ما نجده في كتابات المؤرخين أخصامهم، إلا أن هذه الكتابات لا تخلو من المبالغة بعد ان أطلق العديد من المؤرخين، العنان لخيالهم في وصف المعارك وعمليات القتال، بهدف استدرار عطف الدول وتقديم المعونات الأنسانية لهم. فكان كلا الفريقين المتحاربين في الجهالة والهمجية سواء.

أما موقف السلطنة العثمانية، فأكثر ما يبدو من خلال مشاركة عمالها في الاحداث والوقائع التي حصلت آنذاك. فالسلطنة لم تكن متحمسة لنظام القائمقاميتين، وكانت تعتبره ارتداداً على سياستها المركزية الجديدة، وكانت ترى ان القائمقامية النصرانية تخرج بسرعة عن سيطرتها، وان النفوذ الفرنسي لا يضاهيه أي

(٤٨) المصدر السابق عينه، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٤٩) زين، نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧، ص ٣١.
(٥٠) وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠، معهد الانماء العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨، ص ٦١ ـ ٦٩.
(٥١) شاهين مكاريوس، حسر اللثام، ص ١٣٠ و ١٣٧.
(٥٢) تشرشل، بين الدروز والموارنة، ص ٨٦.

نفوذ آخر، حتى ان القنصل الفرنسي في بيروت كان يُستقبل كرئيس دولة كلما زار كسروان، لهذا كان العمال العثمانيون يستعملون وسائلهم التآمرية، ويدسون دسائسهم، ويرون ان في الفتن الدموية وسيلة لإعادة حكمهم المباشر على الجبل، وانهاء النظام الثنائي للقائمقاميتين(٥٣). وقد أشار يوسف بك كرم إلى مسؤولية السلطنة العثمانية في رسالة وجهها «إلى أبناء لغته العربية» أورد فيها: « ان عساكر الدولة استلمت أسلحة النصارى بدير القمر باسم الحكومة، وذبحت هي وبعض جهلاء الدروز على باب قشلة العسكر ١٢٠٠ شاب نصراني. وقد شاهد الدروز جريان الدم اللبناني وسمعوا هديره حتى صاحوا قائلين: »يا ليتنا ذبحنا مع أهل وطننا ولا فعلت الدولة على اسمنا هذا الشر العظيم(٥٤).

ان تتبع الرواية التاريخية لوقائع الحرب الأهلية لسنة ١٨٦٠، من شأنه ان يوضح التنسيق العثماني الدرزي الواضح والجلي، في جميع مراحل الأزمة ووقائعها القتالية، لقد كان بإمكان العثمانيين وبقدرات محدودة جداً ان يحولوا دون حصول معارك الجبل، وان يمنعوا الكثير من أعمال القتل والتخريب، لكن التعليمات السرية التي تلقاها المسؤولون السياسيون والعسكريون، حملتهم على تجاهل ما يجري على الأرض، فتركوا الفرقاء يدمرون بعضهم بعضاً(٥٥)، لكن ظاهرة التعاطف مع الدروز بدت واضحة من خلال بعض المساعدات العسكرية التي قدموها لهم، حفاظاً على التوازن بين الفريقين المتخاصمين، واستنزافهما حتى النهاية، ولسان حالهم يردد قول والي دمشق احمد باشا: «اللهم اهلك الكافرين بالكافرين»(٥٦). وهذا ما سمح للحرب الأهلية أن تستمر مدة ليست بقصيرة، ولو قام العثمانيون بوقفها لتمكنوا من ذلك وحالوا دون وقوع المجازر والخسائر بما لديهم في بيت الدين ودير القمر من جنود مزودين بالأسلحة والمدافع، فضلاً عما كانوا يمثلونه من سؤدد للدولة وهيبتها، باعتبارهم الجنود السلطانية(٥٧). ومما يؤكد الدور المشبوه للقوات العثمانية لجهة ضلوعهم بما كان يحصل من مجازر وعمليات ذبح هو وقوع هذه العمليات في أماكن تواجد الحاميات العثمانية النظامية سواء في حاصبيا وراشيا وبيت الدين ودير القمر(٥٨)، الأمر الذي أكده بوجولا Poujoulat وهو الشديد العداء للدروز، فاعتبر ان معركة زحلة كانت معركة بكل معنى الكلمة وليست مذبحة، ويعزو عدم وقوع مذبحة فيها، إلى عدم وجود حاكم عثماني، وما يستتبع وجود الحاكم، من وجود قائد وحامية عسكرية عثمانيين(٥٩).

لقد انصرفت الغالبية العظمى من المؤرخين المعاصرين لأحداث سنة ١٨٦٠ إلى معالجة تلك الأحداث من الزاوية المادية، فدونوا وقائعها بكثير من التفصيل والأطناب، وأسرفوا في الغلو

---

(٥٣) Documents Diplomatiques, T. 10 p.273-274.

(٥٤) سمعان الخازن، يوسف بك كرم في المنفى، مطبعة الانشاء، طرابلس ١٩٥٠، ص ٣٥٦.

(٥٥) François Lenormant¤ Une Perscution du Christianisme en, 1860 Les Evenements Confessionnels au Libañ Editions Dar Al - Abjadia 1983, P.16.

(٥٦) مشاقة، مشهد العيان، ص ١٧٣.

(٥٧) تشرشل، بين الدروز والموارنة، ص ٧٩. أيضا اسكندر ابكاريوس، نوادر الزمان، ص ٢١٦ و ٢٣٨.

(٥٨) المحررات السياسية والدولية، ج ٢، ص ١٠٠.

(٥٩) Poujoulat, La Vrit sur la Syrie, T1, P.206.

والمبالغة، وغلب على بعضهم الأسلوب الملحمي الذي يخاطب مشاعر القارئ وأحاسيسه، قبل منطق العقل ومعايير الإيضاح والتعليل، متبعين نهج السرد الذي لا يخلو من الصور الأدبية واستعمال المحسنات اللفظية، والكثير من السجع والجناس، فوهنت اللغة العربية بما أصابها من مزاحمة لغة الفاتحين، وتسربت العبارات العامية الدخيلة إليها، وخصوصاً الأعجمية منها، وهو الأسلوب الذي غلب على مختلف أنواع الفنون الأدبية في عصر الانحطاط.

الخاتمة

ان محاولة تكوين رواية تاريخية موضوعية ومجردة عن الحرب الأهلية لسنة ١٨٦٠ تبدو من الصعوبة بمكان، نظراً لوجود العشرات بل المئات من المصادر المعاصرة التي تؤرخ فئوياً لهذه الفترة المهمة من بلاد الشام. وإذا كان هذا العدد الكبير مصدر غنى للمؤرّخ، إلا انها تؤرّخ لأحد الفرقاء وليس لفريقي الصراع. ويكاد كتاب «الحركات في لبنان» للراوي عباس أبو شقرا، هو الكتاب الوحيد الذي يؤرّخ للفتنة من الزاوية الدرزية، وقد جاءت الرواية لتدوّن بعد أقل من مئة سنة تقريباً على وقوعها، مما افقدها صفة المعاصرة، في حين ان الرواية التاريخية من الزاوية المارونية أو المسيحية، كتبتها عشرات بل مئات الأقلام، وقد جاء أغلبها مبالغاً فيه لناحية عدد القتلى وإثارة المشاعر بما أوردته من صور القتل والحرق والتدمير، وهو أمر مارسه فريقا الصراع في حربهما الدموية، فضلاً عما ارتكبه الجند العثمانيون من مجازر ومصادرة أموال في مراكز الحاميات العثمانية.

لذلك فان إعادة كتابة الرواية التاريخية على ضوء ما دوّنه المؤرّخون والكتّاب تحتوي على الكثير من الحذر والتشكيك والالتباس، نظراً لما تحتويه المصادر الأساسية لهذه الرواية، من شبهات وتحيّز، الأمر الذي يحتاج إلى دراسات معمقة ومقارنات بين النصوص ومفاضلات، بحيث ترجّح النصوص الموضوعية ذات الاتجاهات والأهواء المتعددة، وتستبعد تلك القائمة على التعصب والذاتية والهوى الديني. ولا يخفى ما للمذكرات الشخصية والمدوّنات الفردية الذاتية وتقارير السفراء والقناصل من أهمية في جلاء الحدث التاريخي، وتوضيح الواقعة المادية، فتشكّل كل هذه الكتابات مصادر أساسية في إعادة بناء الرواية التاريخية على أسس صحيحة وسليمة.

ان اعتماد الكتّاب والباحثين على مصادر أساسية من جانب واحد، ينطوي على كثير من الانتقائية والعصبية وفقدان التآلف بين الحقائق، بهدف تناصرها إظهارا للحقيقة، والعكس بالعكس أيضاً، فتعدد الروايات التاريخية في أمر واحد من شأنه أن يؤدي إلى التوافق أو التناقض، وحيث تتناقض يحسن بالمؤرخ أن يثبت احداها عبر متابعة البحث والتنقيب للوصول إلى طمأنينة العقل وسلامة الاستنتاج، وعليه في كل الحالات ان يبتعد كل الابتعاد عن الروايات التي انفرد بها راوٍ واحد، اذ ان التطابق بين الروايات المختلفة، يوجب الشك لا الثقة، وتزداد الريبة والقلق لأرجحية وقوع النقل والتزوير.

ان عملية نقد المصادر التاريخية عند كتابة أي بحث يتعلق بأحداث سنة ١٨٦٠، يبدو من الصعوبة بمكان نظراً لغياب وجهة نظر الفريق الثاني في تلك الحرب الأهلية المشؤومة، مما يجعل مهمة الباحث تقوم على ما يتوافر لديه من مصادر وان كانت متحيزة أو فئوية أو متباينة، فيعمد إلى نقدها ومقارنتها والمفاضلة فيما بينها، ثم ربط الحقائق التاريخية وتأليفها بهدف الوصول إلى الحقيقة المجردة، إلى اليقين أو ما يشابه اليقين.

ان مقاربة فهم الحقيقة لأحداث ١٨٦٠ على ضـوء نـصـوص الـروايـة، لا تـؤدي إلـى الـنـتـيـجـة المتوخاة وهي تبقى قاصرة عن إدراك الغاية الـمـرجـوة، ولا بـد لـلـبـاحـث مـن سـلـوك طـرق مـسـاعـدة مـنـهـا تـقـاريـر الـقـنـاصـل والـسـفـراء والـمـذكـرات الـشـخـصـيـة وبـعـض الـرسـائـل والمراسـلات. وتبقى الحقيقة المرجوة نقطة البيكار التي يجب الوصول اليها باعتماد مختلف طرق ووسـائـل مـنـهـج الـبـحـث الـتـاريـخـي ومـا تحتويه من أسلوب المقارنة والمفاضلة والخيار بين مختلف الأصول المتوافرة.

ان فتنة سنة ١٨٦٠، وما سبقها من أحداث دموية شكلت كارثة على الصعيد الوطني لجهة تعايش الطوائف والمذاهب في مجتمع متجانس اجتماعياً واقتصادياً، كما شكلت انهياراً وتدميراً لمؤسسات هذا المجتمع السياسية والفكرية، فكان من نتائجه ان رسخت قدم الطائفية فيه وفي المؤسسات التي نشأت لاحقاً سواء في فترة المتصرفية أم الاستقلال اللبناني، الأمر الذي أعطى للنظام السياسي الحالي الصفتين: الدولية في الخارج، والطائفية المذهبية في الداخل، وكلاهما آفتان وقى الله لبنان شرهما.